ادبنا القومي

- ٦ -

عود على بدء

الآن وقد فرغنا مما اطرد فيه الكلام من الالمام بتاريخ النهضة اللغوية الحديثة، والعلل في الاختلاف بين لهجات الادباء والكلام في القديم والجديد — نعود مستعينين بالله الى الكلام في ادبنا العام او (الأدب القومي) .

وقبل كل شيء ينبغي ان أقرر ان في مصر والحمد لله أدباً عربياً بارعاً وان فيها شعراء لا يتخلفون عن فحول الشعراء في ازكى عصور العربية ، وان فيها كتاباً لهم من فصاحة البيان وقوة التصرف ما لا يقل عما أثر عن السالفين من أئمة البيان . وأزيد على هذا ايضاً انهم اجدوا على اللغة نفسها بما طبعوا من الالفاظ وما نظموا من الصيغ في اصابة المعاني الحديثة واداء الاغراض الطريفة . ولا يمكن مؤرخاً ان ينسى في هذا الباب ماجاء به الشيخ حسين المرصفي . وتلميذه البارودي . والشيخ محمد عبده . واللقاني . وسعد زغلول . والمويلحي الكبير . والمويلحي الصغير . ومحمود واصف . وامين واصف . واسماعيل صبري . واحمد شوقي . وحفني ناصف . وحافظ ابراهيم . وخليل مطران . وقاسم امين . ولطفي السيد . وعبد الخالق ثروت . واحمد زكي . والدكتور عبد الحميد بدوي . وطه حسين . وعبد القادر حمزة . والدكتور هيكل . ومحمد المراوي . والمنفلوطي . والسكندري . وعباس العقاد . وابراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعي . وعبد الرحمن شكري . وغيرهم كثير . فانني لم اذكر من ذكرت على سبيل الحصر ، بل على سبيل التمثيل .

ولكن مما لا ينبغي ان يفوتك ايضاً ان هذه النهضة مازال يعوزها شيئان : الاول ان مابعثت من ادب العرب وماجددت من لغتهم انما ظل دائراً في الخاصة ، على حين ظل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سواد المصريين بنجوة عن تذوق بلاغة العرب ، فعكفوا على ادبهم الذي الممت الى بعضه فياسلف ، والذي سأعود اليه في شيء من التفصيل . والخلاصة انه لم ينبعث احد لتبسيط هذه اللغة وتيسيرها حتى تتعلق بروائعها أذهان جمهرة الناس ، اوعمل على رفع مستواهم حتى يدركوها ويتذوقوا بلاغاتها .

اما الثاني فان جل ماتجدد في اللغة وتطرق منها الى اصابة المعاني الحديثة ، ان لم يكن كله ، انما كان من حظ المعنويات دون الماديات حتى اضطر الخاصة ، بله العامة . الى ان يعوذوا في سبيل الترجمة عنها بالتعريب .

ومما يحسن ذكره هنا ان بلاغة الخاصة لا يتذوقها الا الخاصة وحدهم ، اما بلاغات العامة وأشباه الخاصة فالكل في تذوقها واستشعار حلاوتها بمنزلة سواء .

ولست في هذا المقام بمجشمك ان تطلع على العامة ، بل وانصاف المتعلمين . بقصائد امرئ القيس . وطرفة . والأعشى . ولبيد . والأحوص . وأراجيز رؤبة . والعجاج مثلا . لتمتحن مداركهم وتستخبر أذواقهم . بل أرد لهم من ذلك الشعر المرسل السهل اللين القائمة معانيه في ظواهر الفاظه ، اوهو الشعر الذي يسميه صديقنا شاعر النيل بالشعر (الدباح) اطلع بهذا على العامة وانصاف المتعلمين ترهم حتى ان فهموه لم يتذوقوه ولم يحرك فيهم من الشجن كثيراً ولا قليلاً ، اذ تراه يهز نفوس الخاصة هزاً ، ويحز في كبودهم حزاً !

هلم فانشد العامة وأنصاف المتعلمين قول الشاعر :

اقضي نهاري بالحديث و بالمنى ... ويجمعني والهمّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا ... لي الليل هزتني اليك المضاجع

او قول الشاعر :

تعالي نجدد دارس العهد بيننا ... كلانا على طول الجفاء ملوم

وقوله :

ابكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى اذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتهضاً ... بثقل ماحملوني في الهوى قعدوا
لأخرجن من الدنيا وحبهم ... بين الجوانح لم يشعر به احد

وقول الشاعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حدثوني عن النهـار حديثًا أوصفوه فقد نسيت النهارا

* * *

ومازال يخفي الحب حتى حسبته تنفس في احشائه ونكلما

* * *

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
يا ليت من نتمنى عند خلوتنا اذا خلا خلوة يومًا تمنـانا

* * *

احمامة الوادي بمنعرج اللوى بحياة من ابكاك ماابكاك ؟
اما انا فبكيت من ألم الجوى وفراق من أهوى أأنت كذاك ؟

* * *

ولما تدانى البين قال لي الهوى رويداً وقال القلب أين تريد
وقال لي الغادون ما أنت مشته غداة قطعنا الرمل ؟ قلت أعود

* * *

ولقد وقفت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الديار تلفت القلب

* * *

ياسرحة الماء قد سدت مواردة اما اليك طريق غير مسدود ؟

* * *

وكنت اذا ماجئت سعدى بارضها ارى الارض تطوي اليّ ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ود جليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

* * *

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن صديقًا في خلال صديقه تسرب اثناء العناق وغابا

* * *

ايا برق ليس الكرخ داري وانما رماني اليه الدهر منذ ليالي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي

* * *

الا ياحمامي قصر دوران هجتما بقلبي الهوى لما تغنيتما ليا
وابكيتماني وسط صحبي ولم اكن أُبالي دموع العين لو كنت خاليا

* * *

أأترك ليلى ليس بيني وبينها سوى ليلة إني إذن لصبور

* * *

وان مقيمات بمنعرج اللوى لأقرب من ليلى وهانيك دارها

* * *

فديتك أعدائي كثير وشقتي بعيد وانصاري لديك قليل
وكنت اذا ماجئت جئت بعلة فافنيت علاتي فكيف أقول؟

* * *

يا ليت ماء الفرات يخبرنا أين تولت باهلها السفن

* * *

آخر شيء أنت في كل هجعة واول شيء انت عند هبوبي

* * *

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ما ذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا نفعا

ومن هذا الطراز في اشعار العربية كثير ، فهلم انشده العامة وانصاف المتعلمين ، بل وبعض المتعلمين فلست بواجده متدسساً منهم الى نفس ولا محركاً فيها شجنا ، وهذا على سهولته وانكشاف الفاظه ، ووقوع معانيه اكثرها للآداب العامية !

والوجه في هذا واضح جلي : ذلك ان العلاقة بين الألفاظ والمعاني انما هي علاقة وضعية بحتة ، وان زعم بعضهم (كالصيمري) ان هناك علاقة عقلية بين الالفاظ ومدلولاتها بحيث لو تجرد الانسان وشحذ حسه ، وتخلى عن شواغله لوقع على المعنى من نفس اللفظ ما له به عهد من قبل ، وهذا على بعده وغرابته لا تراه يجدي من الجهة العملية كثيراً ولا قليلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلقد نشأنا نسمع اللفظ وندل (بضم النون) على معناه ، وبحكم التكرار في اللفظ واستحضار المعني ، كلما وقع في السمع ينعقد بينهما تمام الاتصال حتى لايكاد الانسان يجيل المعاني في قرارة نفسه من غير ان تقوم في الفاظها المقسومة لها . اما تصور المعاني مجردة من الفاظها فذلك من الشاق العسير .

ثم ان النفس تستريح الى اللفظ بطول ترديده وتقليب اللسان فيه . ثم ان الألفاظ فضلاً عن دلالتها على معانيها الاصلية بتطاول الزمن والاستعمال كثيراً مانتم على دقائق لاينم عليها غيرها . بل كثيراً مايعجز عن تجليتها الشرح والتفسير .

فاذا كان الخاصة يتذوقون الأدب العربي ويتطربون بروائعه فلانهم تعلموه وحذقوه وسلخوا السنين في حفظه وترديد النظر فيه . كما ان من حذقوا منا الفرنسية او الانجليزية مثلاً ودرسوا آدابها وقلبوا النظر في بدائع آثارها — يستريحون من غير شك ، اليها ، ويطربون بها .

وبعد فأنت تعلم ان العامية هي الفاشية في البلاد . وقد استقرت الفاظها على مختلف المعاني من الزمان البعيد ، وجعلت هي الاخرى تتناول من الدقائق مالايكاد يفي فيه الشرح والتفسير . كما استراحت اليها آذان العامة والخاصة جميعاً بطول الاستعمال وكثرة التكرير . ولأورد عليك طائفة يسيرة من الألفاظ العامية ، لعلك مستخرج من صحيح العربية مايؤدي معانيها ، بل ومانم عليه من الدقائق ، ولكن نفسك لاتستشعرها وتطبعها لحسك الا بعد العلاج الكثير في الزمان الطويل :

تقول : « فلان مزمزق مني » و « فلان ماله كده بينقمص بالعجل » و « الكوز اتلمق منه » و « يادوب نوصل العصر » و « الواد ده ابن حنت » و « يقعد وينجمص » و « خده على مشمه » و « سابه يرن » و « فلان ده قفا » و « قل له ينبط » و « اما راجل مقص » و « وفلان راجل بمكي » و « فلان راجل مرم » و « التين المهبطل » و « كان فلان بيمهطه مهط » و « الولد صبح منيق » و « فلان ده مفلوت عياره » و « المسألة كانت يغمه » و « الولد ده دلوعة » و « استذوق » و « شوف لك قط غمضه » .

وارجو ان تبدل كل مايقع لك من (القافات) في هذه الكلمات (همزات) هذه طائفة من الفاظ العامية يشعرك كل منها معنى خاصاً ، ويجلي في نفسك صورة لايستطيع ان يجليها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليك غيره الابطول الإلف وكثرة العلاج والترديد .

ولقد قلت لك فيما سلف ان للعامة احساسهم وعواطفهم ولابد لهذه ان تختلج ولا بد لهذه ان تترفرق ولا سبيل الى حقنها في الصدور حتى يأذن الزمان فيحذقوا العربية الخالصة ، ويطبعوا ملكاتهم على آدابها فكان لابد لهم من ان ينحتوا آدابهم من لغتهم ويصوغوه من متواضع لفظهم فكان لهم على هذا أدب بارع تلوّن في عدة صور ولوضاع . منها الزجل ، ومنها الادوار ، والمواليا ، والواوات ، والطقاطيق ، والمنولوجات ، والامثال ، والنكات البلدية ، او مايعبر عنه عندهم (بالقافية) والتطرف (القفش) وغير ذلك ولقد احسنوا من هذا في كثير .

واني فوق هذا لأزعم ان لغة العامة تمتاز على لغة الخاصة بشيئين : الاول اننا جميعاً نشأنا في العامية وبها نتحدث ونتقاول في جميع اسبابنا . ولا تستثنى من هذا الخاصة انفسهم . فهي ألصق بنفوسنا وادنى الى طباعنا ، وأقدر على تبيين أغراضنا وتصوير عواطفنا .

والثاني : انه اذا كانت أبلغ مظاهر الآداب هي الترجمة عما يعتلج في النفس من فنون الاحساس وألوان العواطف وكانت هذه مستمدة مما يلابسنا ويحيط بنا اذ ان لكل مسمى من ذلك في العامية اسماً ، ولكل معنى لفظاً ، لان العامية لا تحرج ولا تتورع ، فان العامية من هذه الناحية أغنى وأعظم ، بالنسبة لنا ، وفراً .

وهنا أرجو من القارئ الا يظلمني فيخلق بين منية الكاتب وبين مجرد تقريره للواقع وانا انما أقرر الواقع في رأيي على الاقل ، اما أمنيتي واماسعادتي كلها فبأن ينقلص ظل العامية عن البلاد بحيث تخلفها على الالسن كلها سيدة اللغات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net